النّبوّة الخاتمة

بلوغ الإنسانيّة سنّ الرشد

السّيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

في ذكرى المبعث النّبويّ الشّريف، الذي وصفه الشّهيد السّعيد السيّد محمّد باقر الصّدر قدس سره بـ «أروَع ذكرى مرّت في حياة الإنسان»، تتقدّم «شعائر» من قرّائها الكرام بالتّهنئة والتّبريك، وتقدِّم محاضرة للسيّد الصّدر -مقتطفة باختصار من كتاب (أهل البيت تنوُّع أدوار، ووحدة هدف)- ألقاها بتاريخ ٢٧ رجب ١٣٨٨ للهجرة.

بمناسبة ذكرى يوم المبعث، وهي أروع ذكرى مرَّت في حياة الإنسان، وفي يومٍ هو أشرف يومٍ في تاريخ الإنسان، سواءً قيّمنا الأيّام بما تشتمل عليه من أحداث، أم بما تتمخَّض عنه من نتائج، فإنَّ هذا اليوم يبقى هو اليوم الأوّل في تاريخ الإنسان، لأنّه اليوم الذي استطاع فيه الإنسان أن يبلغ الذّروة التي رشَّحته لها عشرات الآلاف من الرّسالات والنّبوّات، فأصبح قاب قوسين أو أدنى، متمثِّلاً في شخص النّبيّ صلى الله عليه وآله.

وبمناسبة يوم المبعث والنّبوّة الخاتمة، نتحدّث عن فكرة التّغيير والتّجديد في النّبوّة، وهي ظاهرة تاريخيّة، عاشها الإنسان على مرّ الزمن إلى أن وُضع لها الحدّ النهائي مع الرّسالة الإسلاميّة الخاتمة. وهذا التّغيير والتّجديد له أسباب عديدة معقولة؛ يمكن أن يقوم على واحدٍ أو أكثر منها:

السّبب الأوّل: وهو في ما إذا كانت هذه النّبوّة قد استنفدت أغراضها، واستكملت أهدافها، وأنهت شوطها المرسوم لها. ففي مثل هذه الحالة، لا بدَّ لها وأن تُخلي الميدان لنبوّةٍ تحمل أهدافاً جديدة، تريد بها التّرقّي بالإنسان إلى المستوى المطلوب.

وأقصد بكون النّبوّة تستنفد أغراضها، أن تكون النّبوّة بالذّات، وَصْفة لمرضٍ طارئ في حياة البشريّة.

فمثلاً ما يُقال عن المسيحيّة، من أنّها كانت تركز على الجانب الغيبي اللّامنظور، وعلى جعل النّفس منقطعة عن كلّ علائق الدّنيا، هذا التركيز -الذي قامت على أساسه لاحقاً فكرة الرَّهبنة- كان علاجاً لمرض عاشه شعب بني إسرائيل؛ هو الإنغماس المطلَق في الدُّنيا، وفي علائقها. هذه الحالة النّفسيّة التي كانت تجعل الإنسان اليهودي مشدوداً إلى درهمه ودينار، كانت بحاجة إلى وصفة تنتشله من ضرورات يومه وغده، وتذكِّره بأمسه وربِّه، لهذا كان في المسيحيّة هذا النّوع من «الإفراط» المناسب مع حالة موضعيّة زمانيّة معيَّنة في التّاريخ الطويل للإنسان. أمّا هذا النّوع من الإفراط حينما يؤخَذ كخطٍّ عامّ للإنسان، يُعتبَر شذوذاً وانحرافاً، لأنّه دواء للمريض وليس طعاماً للصّحيح.

السّبب الثّاني: اندثار تراث النّبوّة السابقة، بحيث يستحيل البناء عليه أو العمل بموجبه. فالمسيحيّة -مثلاً- بعد أن غادر السّيّد المسيح عليه السلام مسرح الدّعوة والعمل، لم يبقَ منها شيء حقيقي يمكن أن يُقام على أساسه العمل النّبوي. الإنجيل الذي يحدِّث عنه القرآن الكريم فُقِد نهائيّاً، والأناجيل التي ظهرت في فتراتٍ لاحقة هي كُتُب ألَّفها طلّاب السّيّد المسيح عليه السلام على أفضل التّقادير، فالرّسالة المتمثِّلة في الكتاب السَّماوي قد انطفأت، والحواريُّون كانوا من حيث القلَّة والتّشتُّت والإضطراب الذّهني، ما يجعلهم غير قادرين على حماية التّراث الباقي في أذهانهم عن السّيّد المسيح عليه السلام.

السّبب الثّالث: إنّ الرّسالة التي نزلت على النّبيّ، كانت محدودة باعتبار «محدوديّة» النّبيّ نفسه، و«المحدوديّة» وإن كانت مفهوماً عامّاً، إلّا أنّ هذا المفهوم العامّ على ما يقول المناطقة [أهل المنطق]، يصدق على أفراده بالتّشكيك، هناك على ما تقول الرّوايات نبيٌّ للبشريّة، ونبيٌّ للقبيلة، وهناك نبوّات تختلف من حيث السّعة والضّيق، باختلاف طبيعة النّبيّ نفسه.

ومن الواضح أنّ الأنبياء كغير الأنبياء، يتفاوتون في درجات تلقِّيهم للمعارف الإلهيّة عن طريق الوحي من قِبَل الله سبحانه وتعالى، فإذا كانت النّبوّة محدودة بطبيعة قابليّات هذا النّبيّ، كان لا بدَّ في خارج هذه الحدود الزّمانيّة والمكانيّة، من نبوَّة أُخرى تمارس عملها في سبيل الله سبحانه.

السّبب الرّابع: هو تطوّر الإنسان المدعوّ نفسه، لا محدوديّة الإنسان الدّاعي، وكون المدعوّ يتصاعد بالتّدريج لا بالطّفرة، وينمو على مرّ الزّمن في أحضان الرّسالات الإلهيّة، فيكتسب من كلّ رسالة درجة من النّموّ، تُهيِّئه وتُعدّه، لكي يكون على مستوى الرّسالة الجديدة وأعبائها الكبيرة، ومسؤوليّاتها الأوسع نطاقاً.

والتّطوُّر في النّبوّة -موضع البحث ههنا لا ما عداه من أصناف التطوّر- يرتبط **بخطَّين اثنَين**:

الخطّ الأوّل - الوعي التّوحيدي عند الإنسان: تستهدف النّبوّة أن تصنع الإنسان من داخله، وأن تصنع له **قاعدة فكريّة أساسيّة** يقوم على أساسها بناؤه الدّاخلي، وعلى أساس هذا الأخير يقوم البناء الخارجي، وهذه القاعدة الفكريّة الأساسيّة هي: التّوحيد؛ أي ربط الإنسان بكامل وجوده وجوانب حياته بربٍّ واحدٍ أحدٍ، وهي بعدُ القاسم المشترك بين كلّ النّبوّات والرّسالات التي عاشها الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض.

إلّا أنَّ فكرة التّوحيد ليست ذات درجة حدّيّة، وإنّما هي بنفسها ذات درجات من العمق والأصالة والتّركيز والتّرسيخ، فهذه الدّرجات متفاوتة، كان لا بدَّ بمقتضى الحكمة الإلهيّة أن يُهيَّأ الإنسان لها بالتّدريج. هذا الإنسان الذي غرق بمقتضى تركيبه العضوي والطّبيعي في حسّه ودنياه، حينما يُدعى إلى فكرة التّوحيد، لا بدَّ من أن يُنتزَع من عالم حسّه ودُنياه بالتّدريج، لكي ينفتح على فكرة التّوحيد التي هي فكرة الغَيْب. فالغَيْب يجب أن يُعطى له على مراحل، وعلى درجات، وكلّ درجة تُهيِّئ ذهنه لتلقّي التّوحيد.

القرآن الكريم يطرح فكرة التّوحيد بأنصع وأوسع ما يمكن من التّنزيه الذي يبقى محتفظاً بقدرته على تحريك الإنسان، لأنّه ينزِّه هذه الفكرة ويجرِّدها من العلائق المادّيّة مع الإنسان، كما في التّوراة والإنجيل المحرَّفَين؛ فالأوّل -التّوراة- يقدِّم الإله في إطارٍ قوميٍّ كأنّه اليهود في مقابل الأصنام والأوثان التي هي آلهة الشّعوب والقبائل الأخرى، والثّاني -الإنجيل- لا يتحدَّث عن الخالق الذي لا شريك له، وإنّما عن الأب الواحد للجماعة البشريّة - والعياذ بالله- والذي له أبناء لهم لغات شتّى.

أمّا القرآن الكريم، فإنّه يجرِّد الله عن أيّ علاقة مادّيّة مع أيّ إنسان، حتّى مع أشرف إنسان على وجه الأرض، مع صاحب الرّسالة بالذّات ﷺ، حيث يقف النّبيّ محمّد ﷺ في لغة القرآن بين يدي الله تعالى، عبداً ذليلاً خاضعاً يتلقّى الأوامر، وليس له إلّا الطّاعة، وإلّا أنْ ينفِّذ حرفيّاً، مثل هذه الفكرة هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه التّنزيه والتّعميق والتّنسيق في فكرة التّوحيد، مع الحفاظ على فاعليّة الفكرة وعلى محرّكيّتها.

الخطّ الثّاني - تحمُّل أعباء المسؤوليّة الأخلاقيّة للدّعوة: يعني كَوْن الإنسان بالغاً إلى درجة تؤهِّله لأن يتحمَّل أعباء دعوة لها ضريبتها وواجباتها وآلامها وهمومها. مثل هذا التّحمُّل أيضاً له درجات، ولم يستطع الإنسان بالطّفرة، أن يصل إلى درجة تحمُّل أعباء الرّسالة العالميّة الواسعة غير محدودة الزّمان والمكان، وإنّما استطاع أن يصل إلى ذلك عبر مران طويل.

يوم المبعث هو أشرف يوم في تاريخ الإنسان، سواءً قيَّمنا الأيّام بما تشتمل عليه من أحداث، أم بما تتمخَّض عنه من نتائج.

المقارنة بين ما تحمّلته أمّتا موسى وعيسى عليهما السلام من مسؤوليّات، وما تحمّلته الأمّة الإسلاميّة بالرّسالة الخاتمة، المقارنة ما بين هذا وذاك، يكشف درجة كبيرة في تحمُّل المسؤوليّات، تُعبِّر عن نموٍّ الاستعداد على مرّ الزّمن، فنبيّ الله موسى عليه السلام مات وشعب بني إسرائيل في التّيه، كتب الله جلَّ جلالُه عليهم التّيه أربعين سنة لأنّهم لم يستجيبوا لمتطلّبات الرّسالة، لم يستجيبوا أبداً لِما تقتضيه رسالة نبيّهم بالنّسبة إليهم.

في المحصّلة: هذان هما الخطّان اللّذان ترتبط بهما التّغييرات في النّبوّة، ولهما حدٌّ نهائي يصل إليه الإنسان، هذا الحدّ النّهائي هو الذي وصل إليه الإنسان حينما جاء الإسلام.

الإسلام كرسالة شاملة كاملة عامّة للحياة، جاءت على أبواب وصول الإنسان إلى رشده الكامل، من ناحية استعداده لتقبُّل وعيٍ توحيديٍّ صحيح كامل شامل، ومن ناحية تحمُّله لمسؤوليّة أعباء الدّعوة.

ونحن باستقراء تاريخنا المنظور، منذ جاء الإسلام إلى يومنا هذا، لا نجد أيّ تغيُّر حقيقي في هذَين الخطَّين، لا في مدى اتّساع الوعي التّوحيدي عند الإنسان، ولا في اتّساع التّحمُّلات الأخلاقيّة في أعباء الدّعوة.

النِّيّةُ سِرٌّ مستودَع
بها يبلغُ الإنسانُ نصابَه اللّازم

الشيخ عبد الله جوادي آملي

رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّما الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرئٍ ما نوى، فمَن غزا ابتغاءَ ما عند الله فقد وقع أجرُه على الله، ومن غزا يريدُ عرَض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلّا ما نوى».

وفي وصيّته صلى الله عليه وآله لأبيّ ذرّ: «وَلْيَكن لك في كلّ شيء نيّة، حتّى في النوم والأكل».

النيّة بمعنى: قصد التقرّب من الله سبحانه، وهي روح العمل الذي بها يحيا ومن دونها يموت، ولا أثر للمَيت. وبها تصحّ العبادة، ومن دونها تبطل. وحيث إنّ للنيّة درجات؛ فلِلصّحّة مراتب، وإن كانت مشتركة في أصل الإمتثال، وسقوط الإعادة أوالقضاء، ولكن لكلٍّ من تلك المراتب ثوابٌ يختصّ بها، وقُربٌ يحصل منها، ولا يحصلُ ذلك الثواب أو القرب من دونها.

حقيقةُ النيّة بمعنى قصد القُربة هي روحُ العمل وقلبُه، وهي أفضلُ من العمل؛ لأنّ حياتَه بها، كما يُستفاد ممّا رواه الكليني رحمه الله بإسناده، عن سفيان بن عيينة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..﴾ هود:٧؛ الملك:٢، قال: **«ليس يعني أكثرَكم عملاً، ولكنْ أصوبَكم عملاً، وإنّما الإصابة خشيةُ الله عزّ وجلّ، والنيّة الصادقة والحَسنة»**، ثمّ قال عليه السلام: **«الإبقاءُ على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص** [هو] **الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحدٌ إلّا الله عزّ وجلّ، والنيّة أفضل، ألا وإنّ النيّة هي العمل»**، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿..كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ..﴾ الإسراء:٨٤، يعني: على نيّته.

خلوصُ النيّة سرٌّ ملكوتيّ

ومن هنا يظهر الجمعُ بين الأصل الحاكم بأنّ: **«أفضل الأعمال أحمزُها»** [أي أمتنُها وأقواها]، وبين الأصل الحاكم بأنّ: **«نيّة المؤمن خيرٌ من عمله»**؛ لأنّ النيّة إذا كانت روحَ العمل ولبّه ومغزاه كانت أفضلَ منه، كما أنّها لا بدّ وأن تكون خالصة، إذ الرّياء المتمشّي في العمل لا يتطرّق إليه إلّا من طريق النيّة فحسب، وتحصيلُ الإخلاص في النيّة أحمزُ وأصعب، لذا تكون أفضل من العمل.

وأمّا سرّ كون نيّة الكافر شرّاً من عمله فلِأنّ النيّة هي الأصل كما مرّ، والأصلُ -الذي به يتقوّم الفرعُ وعليه يتّكئ الغصنُ وإليه يرجع ما عداه- أهمُّ، سواءً في طرف الخير أم الشرّ.

والنيّة لمّا كانت أمراً قلبيّاً لا يطّلع الناس عليها، لا يتطرّق إليها الرّياء والسُّمعة ونحو ذلك؛ لخروجها عن مرأى الناس ومسمعِهم، والعمل لكونه مرئيّاً أو مسموعاً قابلٌ لأن يتسرّب إليه الرّياء، ولذا قد علّل في (عِلل الشرائع) حسبما رواه زيد الشحّام، عن أبي عبد الله عليه السلام كوْن **«نيّة المؤمنِ خيرٌ من عمله»** بذلك، ولكنّ التأمّل في ما تقدّم يوضِح المراد، إذ الرّياء لا يسري إلى العمل إلّا من طريق النيّة، وهي -النيّة- لمّا كانت مستورةً عن أَعين الناس وأسماعِهم تنزّل بلباسِ العمل وتكتسيه، حتّى تصير مرئيّةً أومسموعة.

ولمّا كان العقل العمليّ -بما له من الشؤون والآثار: كالإرادة والإخلاص ونحو ذلك- نورٌ يُعبَد به الرّحمن، وتُكتَسب به الجنان، فإذا كان ذلك النّور مضيئاً بلا انطفاء ولا انخساف حصل الإيمانُ والإخلاص، وإذا كان منخسفاً بطَوع الهوى حصل الكفرُ أو الرّياء، كما يُستفاد ممّا رواه الكليني رحمه الله، عن أبي عبد الله عليه السلام: **«ليس بين الإيمان والكفر إلّا قلّةُ العقل»**، قيل: وكيف ذاك يا ابنَ رسول الله؟ قال عليه السلام: **إنّ العبدَ يرفعُ رغبتَه إلى مخلوق، فلو أخلصَ نيّتَه لله، لآتاه الله الذي يريدُ في أسرع من ذلك»**.

فالإخلاص الذي هو الأساس في النيّة سرٌّ ملكوتيّ لا يناله إلّا مَن أحبّه الله، ولا يحبُّ الله أحداً إلّا مَن تقرّب إليه بالنوافل، وباتّباع آثار حبيبِه رسول الله صلى الله عليه وآله، المتقرّبِ إليه تعالى بالنّوافل كلِّها، والفرائض طُرّها.

فلِلنيّة سرٌّ إلهيّ لا يُنال إلّا بطيّ مراحل تكون النيّةُ في بعضها حالاً، وفي بعضِها مَلَكَة، إلى أن تنتهي إلى مرحلة الإخلاص الذي هو سرٌّ إلهيّ، وكما أنّ المحبّ لله تعالى إنّما يصير محبوباً إذا اتّبع حبيبَه، فكذلك المخلِص -بالكسر- إنّما يصير مخلَصاً -بالفتح- إذا اتّبع مَن استخلَصَه اللهُ لنفسِه فصار مخلَصاً -بالفتح- محضاً، وللمخلَص -بالفتح- أوصافُ وأحكامُ ودرجات، لعلّ أعلاها ما هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الصافات: ١٥٩-١٦٠، حيث دلّ على أنّه ليس لأحدٍ أن يصِفَ الله سبحانه إلّا العباد المخلَصين، وأنّهم يعرفونه تعالى بما هو اللازم اللّائق، وإنْ لم يكتنهوه، وكفى بذلك ذخراً وشرفاً.

وليُعلَم: أنّ الدّارج بين أبناء الظّاهر من النيّة ما هو الإخطار بالبال، أي: الذي ليس له إلّا وجودٌ ذهنيّ، وهو كما قيل: نيّةٌ بالحَمل الأوّليّ، وغفلةٌ وذهول بالحمل الشائع الصناعيّ. وأمّا نفس العمل الخارجيّ فصادر عادةً لا عبادة، حيث إنّه لا أثر للوجود الذهنيّ، ولا بعثَ له، وإلّا لما تخلّله الشكّ والسّهو، والزّيادة والنقيصة، وما إلى ذلك ممّا هو المُبتلى به للنّاس، بل المهمّ في النيّة هو: انبعاثُ الرّوح من العادة إلى العبادة بحيث لا يقرأ ولا يركع ولا يسجد في الصّلاة، وهكذا لا يغسل ولا يمسح في الوضوء -وفي غيرهما- إلّا ببَعث ذلك الأمر القلبيّ، وهذا إنّما يتمشّى من قلبٍ ليس فيه سوى الله تعالى، المعبّر عليه في لسان النصوص «**بالقلب السّليم**» كما روى القطب الراونديّ في (لبّ اللُباب) عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سُئل، ما القلب السّليم؟ فقال: «**دينٌ بلا شكٍّ وهوى، وعملٌ بلا سُمعةٍ ورياء**». كذلك روى الكليني عن الصّادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء:٨٩: «**القلبُ السّليم: الذي يلقى ربّه وليس فيه أحدٌ سواه**"..." **وكلُّ قلبٍ فيه شركٌ أو شكٌّ فهو ساقط، وإنّما أراد بالزّهد في الدّنيا لتفرغَ قلوبهُم للآخرة**».

وإذا كان القلبُ وعاءً لعدّة من الأهداف والأغراض الّتي يجمعها حبُّ الدنيا، فكيف يكون العمل الصادر عنه لله وحده؟ وحيث إنّ الإخلاصَ صَعبُ الوصول فقد أُمِر بالزّهد ونحوه لا لنفسه، بل لحصول ذلك الهدف السّامي. والإخلاص بالمعنى الذي هو سرٌّ من أسرار الله ليس أمراً ذهنيّاً حصوليّاً، بل هو أمرٌ عينيٌّ حضوريّ، فعليه يكون مقاماً معلوماً لدى الله سبحانه لا يتخطّاه إلّا مَن ارتدى برداء المحبّة، أي: كان محبوباً لله بعد أن كان محبّاً له تعالى.

ثمّ إنّ بين عبادة العبيد وعبادة الطُّمعاء (التجّار) وبين عبادة المحبّين الأحرار فرقاً، فضلاً عن عبادة المحبوبين، سيّما إذا بلغوا -أي: المحبوبون- مرتبة المخلِصين -بالكسر- الّذين إذا جدّوا واجتهدوا وهاجروا من غير الله إليه تعالى يستخلصُهم الله لنفسه، فيصيرون مخلَصين -بالفتح-، وهنالك تتبيّن روحُ النيّة وسرُّها الّتي هي روح العمل وسرُّه، فالعمل حيٌّ بالنيّة، وهي تحيا بسرّها الذي هو الإخلاص، الذي هو سرٌّ من أسراره تعالى، المودَعُ في قلبِ مَن أحبّه تعالى ولم يحبَّ سواه، سواءً نفسه أم غيره.

وممّا ينبّه على أنّ النيّة هي روح العمل وأنّها أصلٌ حاكمٌ عليه، هو ما قاله مولانا الصّادق عليه السلام: «**ما ضَعُف بدنٌ عمّا قويت عليه النيّة**»، لدلالته على أنّ العمل البدنيّ تابعٌ للقصد القلبيّ وجوداً وعدماً، وقوّةً وضعفاً، بحيث يدور العمل البدنيّ مدار النيّة في جميع ما أُشير إليه، حتّى أنّ البدن الضعيف يقدر على العمل إذا قويت النيّة، كما أنّ البدن القويّ يضعف عنه إذا ضعُفت النّيّة، فالإنسان بنيّته لا ببدنِه، وهذا الحديثُ من غُرَر الأحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، لتفسيرِه حدَّ الإنسان بأنّه حيوانٌ ناطقٌ ناوٍ، إذ لولا النيّة الّتي هي السرّ المستودَع لما بلغ الإنسانُ نصابَه اللّازم، فهو بعدُ غيرُ بالغ.

والشاهدُ الآخر على أصالة النيّة: أنّها إذا تحقّقت وقويت تكون الصّلاةُ مناجاةً مع الله، ومعراجاً للمصلّي، وإذا ضعُفت وذهل المصلّي عنها، تفقد تلك الصّلاة صِبغةَ النجوى، ويصير المصلّي مستحقّاً للويل، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الماعون: ٤-٧.

إنّ المصلّي الناوي الذي تكون نيّتُه خالصةً لا يكون جزوعاً ولا مَنوعاً، بل هو ممّن في ماله حَقٌّ مَعلُومٌ لِلسّائِلِ والمَحرُوم، والمصلّي السّاهي الذي تكون نيّتُه مشوبةً بالذّهول يُرائي ويمنعُ الماعون، وكم من فرق بينهما، ومدارُ الفرق إنّما هو النيّة في الأوّل، والذُّهول عنها في الثاني، لا فعلُ الصّلاة ظاهراً لاستوائها في الحالَين.